مصر لم تعرف الطائفية

■■■ الأقليات.. المشكلة والحل

obeikan.com

obeikan.com

مصر لم تعرف الطائفية

يخطئ من يظن أن في مصر أغلبية وأقلية. ويخطئ من يظن أن أقباط مصر مجرد أقلية. لأن وجود أقلية معناه وجود مصالح خاصة أو توجه سياسي خاص. يختلف عن التوجه العام للمجتمع يتقاطع أو يتصادم معه. والحقيقة الكبرى التي لا يختلف عليها اثنان هي أن شعب مصر كله ينتمي إلى نفس التوجه الحضاري والثقافي والوطني، بل ويتعرض لنفس التحديات ونفس الأعداء.. فالمسلمون ينتمون إلى الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة وكوطن. والأقباط أيضًا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن. ومن يشذ عن هذه القاعدة فهو خارج على الإجماع الوطني سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا.

والكنيسة القبطية بتراثها المتميز وعقائدها المستقلة والتحديات التي واجهتها تاريخيًا جزء لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية الوطن الإسلامي.

كل من المسلم والمسيحي في مصر متمسك بالإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن - ويواجه نفس الأعداء "الاستعمار - الصهيونية". ويناضل ضد التحدي الحضاري الأوروبي الذي يريد تدمير الحضارة الإسلامية بما فيها التراث القبطي المتميز والمستقل.

ومحاولات زرع الفتنة الطائفية والتفكير الطائفي والسلوك الطائفي هي عملية مشبوهة ومرفوضة شكلاً وموضوعًا يرفضها الإسلام والحركة الإسلامية والكنيسة القبطية

أيضًا - وهي جزء من مؤامرة استعمارية تستهدف كياننا الحضاري ووجودنا كله.

مصر لم ولن تعرف الطائفية بإذن الله تعالى. فالإسلام دين غير طائفي أليس الإسلام هو رسالة للتحرر من كل قهر واستبداد وظلم طبقي أو اجتماعي أو طائفي - أليس الإسلام هو الجهاد من أجل إزالة كافة أشكال القهر والتسلط والطغيان والظلم من على وجه الأرض وترك الناس ليختاروا ما شاءوا من عقيدة - أليس هو دعوة لحرية الفكرية العقائدية - إن مهمة المسلم كما حددها له الإسلام ليست إكراه أحد على عقيدة ما ولا عقيدة الإسلام ذاتها ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾«البقرة: ٢٥٦». بل مهمة المسلم هي القضاء على الذين يقهرون الناس ويفرضون عليه عقيدة معينة أيا كانت هذه العقيدة، ومن واجبات المسلم الانتصار للمستضعفين والمظلومين من كل الأديان والأجناس والطوائف.

ومنذ ظهور الإسلام وحتى الآن - شهدت الدنيا صراعًا لم ينقطع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من عدل وحق وحرية واحترام للإنسان وبين الحضارة الأوروبية وهي حضارة وثنية إغريقية ذات قشرة صليبية بما تمثله من قهر وظلم وتدمير للقيم ونهب لم ينقطع، هذا الصراع امتد في الزمان والمكان إلى أن انتهى بالحقبة الاستعمارية التي ما نزال نعيش في ظلالها القائمة حتى الآن. وأقباط مصر ومسلموها كانوا في خندق واحد دائمًا ضد تلك الحضارة الأوروبية المتسلطة والظالمة.

دخل الإسلام مصر لينهي عهدًا طويلاً من الاضطهاد والقهر الذي مارسته الإمبراطورية الرومانية ضد الكنيسة القبطية مصر سواء في العهد الوثني أو المسيحي لتلك الإمبراطورية الرومانية. واعتنقت مصر بمن أسلم ومن ظل مسيحيًا أرثوذكسيًا "قبطيًا" الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية وتكلم شعب مصر اللغة العربية بمسلميه وأقباطه - بل وكان هناك رواق للأقباط في الأزهر ومنهم من نبغ في علوم اللغة العربية بل والفقه الإسلامي وطوال الحكم الإسلامي لم تعرف مصر أي شكل من أشكال الطائفية وعاش شعب مصر بمسلميه وأقباطه كجزء لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية. وخاض شعب مصر بمسلميه وأقباطه المعارك والتحديات التي واجهتها الحضارة الإسلامية وحينما يفسد الحكام - كان الظلم يقع

على كاهل المسلمين والأقباط سواء بسواء - أي أن الظلم هنا لم يكن طائفيًا ولكنه كان في إطار ظلم حاكم ما للشعب.

بل ولم تعرف المنطقة برمتها ما يسمى بالصراع الطائفي إلا بعد ظهور الاستعمار وإنهاء الحكم الإسلامي - وكنتيجة مباشرة للمؤامرات الاستعمارية - فبلد كلبنان مثلاً لم يعرف المذابح الطائفية إلا بعد ظهور الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي وفي إطار الصراع بينهما - فمثلاً دبر الإنجليز المذابح الطائفية للمسيحيين في لبنان سنة ١٨٦٠ فيما يعرف بطوشة النصارى - والعجيب هنا أن الأمير عبد القادر الجزائري - الذي عانى هو وشعبه الجزائري أهوال الاستعمار الأوروبي في الجزائر - كان هو نفسه من قام بحماية نصارى لبنان أثناء تلك المذابح - وكان الأمير عبد القادر منفيًا في ذلك الوقت ويعيش في دمشق.

وعبد القادر الجزائري هنا عبر عن حقيقتين في نفس الوقت وهي أن الإسلام يرفض ويقف ضد كل محاولات الظلم والمذابح الطائفية التي تديرها أصابع الاستعمار - وأن نصارى الشرق ينتمون إلى الحضارة الإسلامية كثقافة وكحضارة وكوطن.

والسيد جمال الدين الأفغاني مثلاً - وهو زعيم إسلامي - استطاع أن يحشد خلفه - في مواجهة النفوذ الاستعماري - المسلم والمسيحي بل واليهودي أيضًا على قاعدة الانتماء إلى الإسلام كحضارة وكثقافة وكوطن.

والثورة الإسلامية العرابية مارست نفس الشيء - لأنها جرت من مشكاة الوعي الإسلامي الفذ للسيد جمال الدين الأفغاني. وانحاز إلى عرابي في إطار تلك الثورة كل من ينتمي إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن في مواجهة الذين انحازوا إلى الاستعمار والحضارة الأوربية. ووجدنا مثلاً في خندق الثورة بطريرك الأقباط وحاخام اليهود في مصر بل ووقعا على قرار المجلس العرفي بعزل الخديوي توفيق.

وفي إطار النضال ضد الاستعمار البريطاني بعد عام ١٨٨٢ م من خلال الحزب الوطني - وهو حزب إسلامي التوجه والأساليب. لمعت أسماء لأقباط كانوا من قيادات ذلك الحزب مثل ويصا واصف ومرقص حنا وغيرهم.

وفي ثورة ١٩١٩ تجمع الشعب المصري بمسلميه وأقباطه على قاعدة الانتماء إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن في مواجهة الاستعمار البريطاني الذي يمثل الحضارة الغربية الاستعمارية.

بل ووجدنا الإمام الشهيد حسن البنا - يؤكد أن الأقباط ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكوطن. فقد كتب البنا وهذا الشعب - شعب وادي النيل كله في الشمال وفي الجنوب - يدين بهذا الدين الحنيف والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم كيف تجد الأمن والعدالة والمساواة التامة في كل تعاليمه وأحكامه، ويعتبرون الإسلام معنى من معاني قوميتهم".

ولأن الأقباط ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة - لم يجدوا أي حساسية في شعارات الإخوان المسلمين ولا ممارساتهم الإسلامية - بل وقفوا معها - ويحكي الإمام الشهيد حسن البنا في مذكرات الدعوة والداعية "أن أحد المسيحيين قدم عريضة ضده تتهمه بالتعصب - إلا أن وفدًا مسيحيًا برئاسة راعي الكنيسة الأرثوذكسية بالإسماعيلية قد رد عنه هذه التهم وأعلن استنكاره لما حدث".

وفي إطار مصر الفتاة - لعب الأقباط دورًا هاما أيضًا من خلال هذا الحزب الذي لا يخفي إسلاميته - بل لعل إسلامية هذا الحزب كانت أحد دوافع هؤلاء الأقباط للدفاع عنه أو النضال من خلاله - ولمعت أسماء مثل الدكتور فخري أسعد كأحد قيادات هذا الحزب - وسامي جورجي سكرتير شعبة مصر الفتاة بأسوان - وبسكالس ويصا كعضو في لجنة الحزب التنفيذية وعرف من أنصار الحزب أيضًا بشرى بباوي ولبيب خليل وحنا معوض غطاس وحنا خميسة ولبيب دنيال وموريس شهاد.

وإذا حاولنا أن نقرأ فيما يسمى خطأ بأحداث الفتنة الطائفية - نجد أن كلها أحداث تثبت عدم وجود الطائفية في سلوك الشعب المصري من ناحية أو هي حوادث دبرتها الأصابع الاستعمارية من ناحية ثانية.

فحوادث العنف التي صاحبت ثورة القاهرة الأولى والثانية ضد الحملة الفرنسية

وجهت أساسًا إلى المتعاونين مع الاستعمار الفرنسي سواء كانوا مسلمين أو أقباطًا- فقد طالت تلك الحوادث هؤلاء الذين تورطوا مع الجنرال يعقوب فيما يسمى بالفيلق القبطي - كما طالت أيضًا المسلمين المتورطين في التعاون مع الاحتلال مثل محافظ القاهرة مثلاً - فهي إذًا لم تكن موجهة إلى الأقباط بصفتهم أقباطًا بل وجهت إلى من تعاون منهم مع الاحتلال ضد أبناء شعبه - ولو كان الثائرون قد استثنوهم من العقاب بسبب قبطيتهم لكان هذا سلوكًا طائفيًا.

ومذبحة الإسكندرية مثلاً-أنفق كل المؤرخون بشأنها بأنها من افتعال القنصل الإنجليزي في الإسكندرية وبتدبير منه.

وأحداث العنف التي صاحبت الثورة العرابية - والتي طالت بعض الأقباط - طالتهم بسبب قيامهم بعمليات الربا والنهب في إطار عملية النهب الاستعماري لمصر -وبالطبع طالت الأجانب لقيامهم بالعمل نفسه وطالت أيضًا بعض المسلمين المتعاونين مع الإنجليز والخديوي توفيق وخاصة من أمراء البيت الخديوي.

أما عملية اغتيال بطرس غالي رئيس الوزراء ١٩١٠ على يد إبراهيم الورداني فلم تكن بسبب قبطيته - بل بسبب تعاونه مع الاحتلال في توقيع اتفاقية السودان ١٨٩٩ التي أطلقت يد إنجلترا في السودان - وبسبب حادثة دنشواي التي رأس محكمتها وبسبب إصداره قانون المطبوعات وبسبب عزمه على مد امتياز شركة قناة السويس - وقد كان هذا السبب هو الذي عجل بتنفيذ عملية الاغتيال في بطرس غالي لأنه عمل يستفز أي وطني. ولو كان إبراهيم الورداني قد تراجع عن اغتيال بطرس غالي لأنه قبطي- لكان هذا سلوكًا طائفيًا وأكثر من هذا فإن الأقباط قد دافعوا عن إبراهيم الورداني - ونفوا عنه تهمة التعصب. فنصيف المنقيادي نشر في صحيفة الإكليز خطابًا قال فيه "إنني أعرف الورداني شخصيًا وهو فتى شديد الذكاء كثير المعارف وليس رجلاً متعصبًا - وإنني بصفتي قبطيًا أي مصريًا مسيحيًا أصرح أن تهمة التعصب الإسلامي ليست إلا من إشاعات الإنجليز".

وأكثر من هذا أيضًا أن أحد الأقباط وهو عريان سعد قام بمحاولة اغتيال يوسف سليمان باشا وهو قبطي أيضًا بسبب تعاونه مع الإنجليز .

وفي أحداث ١٩١٠ - حاول الإنجليز إذكاء نيران الفتنة الطائفية واستغلال حادثة اغتيال بطرس غالي - واستطاعوا إغراء بعض عملائهم بإثارة ما يسمى بمطالب الأقلية - إلا أن الوعي الشعبي قد طوق هذه المحاولة وهدأت الأحوال ويتفق جميع المؤرخين مثل الرافعي - طارق البشري - وليم سليمان على أن الأصابع الإنجليزية كانت وراء أحداث ١٩١٠.

أما أحداث السبعينيات فإن الأستاذ وليم سليمان يتهم الاستعمار والصهيونية بأنهما من ورائها.

- والبابا شنودة نفسه يتهم السادات بها أي أن الحركة الإسلامية والمسلمين عمومًا أبرياء منها بصرف النظر عن صحة اتهام البابا من عدم صحته.

أما الأحداث الأخيرة في المنيا والفيوم وغيرها. فإن جريدة الشعب - عدد ١٧ ابريل ١٩٩٠ - قد اتهمت صراحة بأن وراء تلك الحوادث عدد من الجهات الأجنبية خاصة وأن النيابة قد ضبطت تنظيمًا من بعض الأجانب يحمل منشورات ووثائق تثبت تورطهم في إشعال نيران الفتنة الطائفية في مصر.

إذًا فلا يمكن اتهام المسلمين أو الحركة الإسلامية بالطائفية سلوكًا أو فكرًا، سابقًا أو الآن. والمسألة كلها من فعل قوى الاستعمار والمرتبطين به. أو أنها أحداث غير طائفية أصلاً ولكن بعض مثقفي المدرسة الاستعمارية يحاولون وصفها بالطائفية خدمة لأهداف الاستعمار.

بقيت نقطة هامة في هذا الإطار - وهي أن الشريعة الإسلامية مطلب قبطي أيضًا - لأن الأقباط بحكم انتمائهم إلى الإسلام كثقافة وحضارة ووطن يدركون أن الاستعمار الأوروبي وحضارته الاستكبارية. ووفقًا لبحث أجراه المركز القومي للبحوث والدراسات الجنائية والاجتماعية في مصر فإن أكثر من ٧٢ ٪ من الأقباط يطالبون بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الغراء.